

مفاجأة: استبار نفسى تحت الإعداد

(ملاحظات عن العلاج المعرفى، والعامية، والفصحى، والثقافة)

أحب أن ألعب وأنا أفكر، وأن أتحدى وأنا أتلقى، وأن أغير وأنا أكتب.

منذ حوالى أسبوع، وصلتني دعوة كريمة من صديق صاحب أفضال على وعلى الناس أ.د. جابر عصفور، تدعوني لحضور الصالون الثقافي بمناسبة صدور ترجمة كتاب عن "العلاج المعرفى"، ولأننى مهتم جدا كما لاحظتم بالعلم المعرفى، أكثر من اهتمامى بالعلاج المعرفى، ولأن المترجم هو من أقرب تلاميذى إلى فكرى، ومراجع الترجمة هو أحد أجيبهم، فقد فرحت أنهما اجتهدا هكذا، فى هذا الموضوع بالذات.

توكلت على الله واشترت الكتاب (حوالى خمسمائة صفحة) وبلغنى منه، أعنى وصلنى من خلاله، أن "لا"، "ليس هكذا"، هذا الكتاب هكذا لا يصلح لثقافتنا، لا أوافق، حتى لو كانت كاتبته هى جوديث بيك، إبنة منشئ هذا العلاج: أرون بيك، (تقريبا، أعنى الذى أعطاه اسمه، فالعلاج المعرفى الحقيقى أقدم من الطب النفسى شخصيا) وهو الذى كتب لابنته مقدمة الكتاب.

امتألت غيظا وتحديا وأنا أقرأ الكتاب وأقارنه بما أمارسه من علاج أسميه أنا أيضا - للأسف- "العلاج المعرفى" (وسوف أبحث له غالبا عن اسم آخر، أو يبحثون هم)، فهو يخالف أبسط ما تحاورنا حوله، وجربناه هنا، من ألعاب نفسية طوال صدور هذه المنشرات، وهو يخالف أيضا أبسط أساسيات ما أمارسه من علاج سمعى منذ حوالى أربعين عاما، وهو -هذا العلاج الجمعى- مبنى على العلم المعرفى، وتعدد قنوات التواصل، أكثر من أنه علاج جشالتى، مع أن صفة "جشالت" هى المستعملة أكثر. المهم حمدت الله - وشكرت فى نفسى صاحب الدعوة الكريمة والمؤلف والمراجع - أن أتاحوا لى هذه الفرصة لأعرف ماذا أمارس، بالمقارنة بماذا هناك، وبذلك أتعرف أكثر على خصوصية ثقافتنا.

حتى أكون أمينا مجتهدا، ولم أكن قد قررت الاعتذار عن المشاركة فى الصالون بعد، اقتنيت فى نفس الوقت كتابا أحدث، كتبه عالم مصرى، ومعالج معرفى، قدير، هو الأستاذ الدكتور عبد الستار إبراهيم، وأنا أعرف كم هو حريص على وضع ثقافتنا العربية فى الاعتبار، فى الممارسة والتنظير على حد سواء، الكتاب بعنوان "عين العقل"، وقد وجدته أقرب، وأبسط، وأكثر فائدة، وأشياء أخرى كثيرة،

انشغلت بإثبات ملاحظاتي، وبالمقارنات التى ألحمت لها فى رسالة الاعتذار عن المشاركة، وهذا نصها:

الأستاذ الدكتور جابر عصفور، مدير المركز القومى للترجمة،

بعد السلام عيكم

أشكركم على كريم دعوتكم للمشاركة فى الصالون الثقافى الذى سوف يعقد اليوم 25 يناير 2009 بالمجلس لمناقشة كتاب "العلاج المعرفى"، وأتقدم بالاعتذار عن عدم تمكنى من المشاركة فى هذا الصالون الهام، لظروف حادة، خاصة جدا.

هذا وأنتهز الفرصة لأعرب عن شكرى وتقديرى للجهد الذى بذله كل من المترجم د. طلعت مطر، والمراجع د. إيهاب الخراط، وكلاهما من أعز وأجيب تلاميذى، فأوليت هذا العمل اهتماما خاصا لشدة حاجتنا إليه فى مرحلتنا الراهنة، كما قمت بعد قراءته بمقارنته بعمل مؤلف حديث صدر مؤخرا عن نفس الموضوع بعنوان "عين العقل"، (دار الكاتب للطباعة والنشر سنة 2008) تأليف أ.د. عبد الستار إبراهيم، وقد وجدت من خلال المقارنة ما يحتاج إلى نقد هام لن أتمكن من المشاركة به اليوم.

ويشرفنى أن أرسل رأي مكتوبا لاحقا لكل من المؤلف والمترجم ولجنة التى أجازته لمن يطلب منهم ذلك، وخاصة فيما يتعلق بالنقاط التالية:

1- من المخاطب الأول (ثم من يليه) بهذا العمل: فى مصر والعالم العربى (مسئولية لجنة الإجازة)؟

2- أين يقع هذا الكتاب بالنسبة للتطورات الأحدث فى "العلاج المعرفى"، وقد وصلت حركات التطور به إلى الحركة الثالثة التى تفرع منها ثلاثة أنواع حتى الآن؟ (أين الهوامش؟ بما فى ذلك الإشارة إلى الضعف الشديد للربط بين ما يسمى العلاج المعرفى والعلم المعرفى الحديث؟)

3- ما مدى علاقة هذا الكتاب بالثقافة المصرية العامة، والثقافة العربية، سواء من حيث الفائدة العملية في الممارسة العلاجية (الإكلينيكية)، أو الفائدة المعرفية النظرية، علما بأن اختلاف الثقافة العامة فيما يتعلق بهذا الموضوع بالذات - العلاج المعرفي- هو من أهم الاختلافات الدالة في الممارسة الإكلينيكية في العلاج النفسي خاصة، حيث يبنى على تعديل التفكير، نمطا ومحتوى، وما أوثق ذلك بما هو ثقافة.

4- مع كل احترامي للعامية المصرية خاصة، والتي أعتبرها لغة كاملة لا يعيبها إلا أنها شفاهية في المقام الأول، فإنني أتساءل إلى أي مدى تجوز الترجمة - ولو اقتصرنا على الحوار الذي فاقت مساحته أكثر من نصف الكتاب - من الإنجليزية المكتوبة إلى العامية المصرية المنطوقة ثم المكتوبة، هذا علما بأن الكتاب المقارن المؤلف محليا في نفس الموضوع، والمشار إليه سابقا حالا، قد تعمد أن يورد الحوار باللغة الفصحى، وكلا التوجهين يحتاج إلى مناقشة ليست قليلة.

5- وأخيرا أود أن أنبه إلى رأي خاص سبق أن كتبت منذ أكثر من ربع قرن عن "مسئولية الترجمة بين تسطيح الوعي واختزال المعرفة" فيما يخص تشكيل وجداننا القومي الحديث، وأثر ذلك على تشكيل الوعي القومي والهوية الخاصة (مرفق طيه عشرين نسخة محدثة من هذه الأطروحة لسيادتكم ومن شاء من الحاضرين، ويمكن الرجوع إليها في موقعي الخاص أيضا www.rakhawy.org).

وأخيرا أكرر اعتذاري وشكري، وأتمنى للمجتمعين التوفيق حالا ومستقبلا في كل ما يحقق ما أملته في مشروع الترجمة للألف كتاب الثانية حتى قبل تأسيس المجلس الأعلى للترجمة، وأعتبر أن ذلك من أعظم إنجازات الصديق الراحل الكريم أ.د. جابر عصفور (وما أعظمها في كل مجال).

كما أنتهزها فرصة لأشكر د. شهرت العالم، مكررا تعزيتي في والدها الكريم الذي رحل عنا ونحن في أشد الحاجة إلى حضوره فاعلا مرشدا هاديا هذه الأيام خاصة، وأذكر أنه كان صاحب الفضل في نشر أطروحتي المرفقة والسالفة الذكر في "قضايا فكرية"، اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، واغفر لنا وله.

وعليكم السلام
يجيى الرخاوى

تحريرا في 25 يناير 2009

* * * * *

ثم بدأت في كتابة نقدي المقارن بين الكتابين وجدت -أثناء ذلك- في الكتاب المصرى العربى "عين العقل" ما شدنى، خاصة في الملاحق التي أثبت فيها المؤلف مجموعة من الأسئلة (الاستبيانات) لتغطية أبعاد ومواقف ومتطلبات التعرف على من يطلب المشورة والمساعدة بهذه التقنية الجيدة - العلاج المعرفي - بالطريقة المقدمة في الكتاب، وحين هممت بترجمة بعض هذه الاستقصاءات إلى العامية المصرية، لأقرب منها أكثر، توقفت منتبها إلى حقوق الطبع، وقررت أن أستأذن المؤلف أولا، وعدلت بعد بضعة سطور

كنت قد قمت بنفس المحاولة بالنسبة للاختبار الأشهر للشخصية: "اختبار منيسوتا المتعدد الأوجه" MMPI، ولكنني لم أوصل البحث للمقارنة بين النسخة العامية المصرية، والنسخة العربية الفصحى التي أحترمها احتراما فائقا، وأستفيد منها إكلينيكا فائدة قصوى.

المفاجأة

كان ذلك منذ حوالى عشرين عاما، وكنت أزور إحدى الشخصيات المهمة التي تقضى إجازتها في مونترية (بلد توقيع معاهدة 1936) في سويسرا (ربما لذلك قبلت الدعوة، وأنا لم أفعلها إلا ثلاث مرات في حياتي المهنية كلها، ويبدو أنني أخفقت في الثلاثة مرات، لأنه ولا واحد من الثلاثة عاود استشارتي، لأنه -غالبا- رفض تعليماتي، "المعرفية" التي هي أساس ممارستي قبل وبعد الدواء). المهم بعد وصولي إلى مونترية اكتشفت أنني لم أحضر معي- سهوا- اختبار منيسوتا الذى أحبه وأحذق قراءته، وهو ليس مفيدا فقط في المساعدة في سبر أبعاد الحالة إكلينيكا، لكنه أيضا يساعدني - حين أطبقه شخصا مشافهة - على فتح مناقشات لاحقة مع المريض، تكتمل بها أبعاد الحالة، هذا الاختبار مكون من 566 عبارة يجيب عليها المختبر بـ: "نعم" و "لا"، حين اكتشفت ذلك السهو، وافتقدت هذا الاختبار قررت فورا أن أضع بنفسى عبارات من عندي على حاسوبي، أقرب إلى ثقافتنا، استلهمتها من خلال خبرتى حتى ذلك التاريخ، فوجدت أن العبارات التي وضعتها بالعامية المصرية هي أقرب إلى ما أريد سبر غوره، وأسيت هذا

الاختبار بيني وبين نفسي اختبار قصر العيني- المقطم- مونترية، نسبة إلى مصدر خبرتي، ثم موقع استلهامي.

انتهت المهمة الطبية بعد بضعة أيام - بالفشل غالباً- وعدت ومعنى هذه الأربعمئة عبارة (وأكثر قليلاً)، عدت وأنا أنوى أن أحاول تقنينها في بلدنا، ربما تحل محل الاختبارات المترجمة من ثقافة أخرى .. إلخ، ثم انشغلت، وكدت أنسى الموضوع برمته.

حين توقفت بعد بضعة عبارات عن الترجمة إلى العامية لاستبيان مبدئي من كتاب "عين العقل"، قفزت إلى ذاكرتي هذه المحاولة القديمة، فطلبت من سكرتاريتي البحث عنها، وكنت أيامها أكتب على حاسوب "أبل ماكنتوش"، وتم نقل كل محتوياته إلى IBM، فأصبحت الأمور أكثر تعقيداً، وأصبحت التجربة أبعد منالاً. بعد يوم وبعض يوم أخبرتني السكرتارية أنهم لم يعثروا على أي شيء من هذا القبيل، فجزعت، وكان هذا اللعب المستلهم كان يساوي شيئاً، وكأنني كنت سوف أكمل ما بدأتها تأكيداً لهويتنا، ونماشياً مع ثقافتنا، وكأنني وكأنني ..، ومارست العادة الغريبة من أنه: حين يضيع أي شيء منك تقفز قيمته السرية إلى ظاهر الوعي، ويبدو لك أثنى ما يكون المهم، مر يوم آخر، وإذا بأقدم واحدة في السكرتارية تخبرني أنها عثرت على ما أريد، وأن زميلتها الأحداث التي كانت تبحث عن الاختبار الضائع كانت تبحث عن كلمة "بورتريه"، وليس "مونترية" لغرابتها على أذنها، ولهذا لم تعثر عليه، وأن التجربة بأكملها مازالت محفوظة على الحاسوب القديم "ماكنتوش"، دليلاً على نسيانها وإهمالها تماماً، وأنها ستقوم بنقلها إلى الـ "آي بي إم" .. إلخ، وفعلت، وأحضرت لي الاختبار بعد ساعات، فكانت أثار المفاجأة، بعد مراجعة الكتابين، كالتالي:

- تبينث - بعد أن مارست الألعاب في العلاج الجمعي ثم معكم في هذه النشرة - أنه لا بديل عن العامية لسر غور النفس، ثم أنه لا بديل أيضاً عن العربية الفصحى، وهذا أضعف الالتزام، مع ضرورته. (برغم تقديري المطلق لترجمة النسخة العربية من اختبار الشخصية المتعدد الأوجه إلى الفصحى)
- تبينث كذلك أن العبارات المستلهمة من الخبرة الإكلينيكية الحلية هي الأقدر على الإحاطة بالظاهرة المراد تقييمها
- تأكدت من مخاوفي من خطورة البدء من الترجمة من ثقافة أخرى لها لغة أخرى دون تحفظ (بما في ذلك ما جاء في خطاب الاعتذار عن الصالون الثقافي السالف الذكر)
- انتبهت إلى أهمية ما ينشر، في النشرة اليومية "الإنسان والتطور"، من عرض حالات (حالات وأحوال) بما فيها من حوارات مسجلة مباشرة، وأيضاً مناقشات "التدريب عن بعد" جلسات الإشراف على العلاج النفسي، بالعامية، ثم فائدة بريد الجمعة وتعقيبات الأصدقاء، وكثير منها بالعامية.
- وصلتني الحاجة أكثر فأكثر، وأطول فأطول، إلى نشر حالات بنصوصها الممكنة، كما نفعل في النشرة مقارنة بحالة "سالي" في كتاب جوديث بيك، التي امتدت بطول الكتاب دون منازع.
- قارنت بين ما نمارسه معاً هنا عبر النشرة من ألعاب نتخرج من عقلنة نتائجها، (بالحيث عنها، أو تأويلها بأفكارنا وتفسيراتنا اللاحقة، أو تأكيد ما وصل من خلالها: بالألفاظ) وبينما وصلني فرط العقلنة في هذا المستوى من العلاج المعرفي الذي وصلني من الكتاب المترجم، وحتى من الكتاب الهام المؤلف محلياً "عين العقل"، وكاتبه الحاذق العالم .

فقرت التالي:

- أن نحاول معاً فحص ومراجعة تلك العبارات التي سجلتها في هذه الخبرة القديمة، التي كانت سبباً في وضع هذا الاختبار الخاص بنا، وهي الخبرة التي ظهرت هكذا مصادفة (وقد تم تحديث بضعة عبارات منها، ثم إضافة ما أكملها خمسمئة عبارة)
- أن أغير طريقة الاستجابة من "نعم - لا" في الاختبار المقترح إلى "فعلاً"، "مش قوى كده"، لأطبعها.
- أن أكتفي اليوم بطرح أول عشرة عبارات تمهيداً لعرض الاختبار كله غداً
- أن أطلب رأيكم بعد ذلك في طريقة عرض الاختبار جزءاً جزءاً (عشرون عبارة كل نشرة للمناقشة أو خمسون، أو ما ترؤن)

- أن أعزف عن كل هذا خوفا من أن تأخذ الفرحة بالمفاجأة حقنا في أبواب النشرة الأخرى، (وقد بدأ ذلك فعلا بالتوقف اليوم عن متابعة مناقشة لعبة : يا نهار اسود دا انا لو خفيت، كما وعدنا.
- وهكذا قد تعود عبارات الاستibar كلها، بما تحمل من آمال ووعود إلى مخزنها، حتى لو اضطرت إلى إعادة تحويلها إلى مخبئها في "الماكنتوش" !!

عينة (للفرجة)

وإليكم هذه العينة "للفرجة" اليوم، وربما للتعقيب المبدئي إن شئتم هذا علما بأنني أقوم حاليا بترجمة الخمسمائة عبارة إلى الفصحى ربما يشاركنا في الرأي الأصدقاء والصدقات العرب من غير المصريين (بناء عن توصية الصديق أ.د. جمال التركي)

مشروع: استبار قصر العيني- المقطم - مونتية

الاسم (الحقيقي أو كما تشاء)
السن (الذكور أو الإناث)
(متزوج أعزب أرمل يعول)
الحالة الاقتصادية : مستكفي..... مديون.....
مستريح..... مدخر..... أكثر مما
تحتاج.....
المؤهل الدراسي : دراسات عليا..... مؤهل
عالي..... ثانوي..... فني
متوسط..... إعدادي..... أقل.....

الاستجابة المقترحة: (بدلا من : نعم - لا)

فعلا	مش قوى كده	لأ طبعاً
------	------------	----------

عينة: العبارات العشر الأولى:

1. أحسن حاجة إن الواحد ما يقولشى رأييه في التانيين عشان ما حدش يزعل منه
2. أحب أشوف في التليفزيون برامج المصارعة الحرة
3. الجدة أحن من الأم دائما.
4. أعتقد إن القراءة في غير التخصص مضيعة للوقت
5. الدنيا دي ذنية الشطار وبس
6. اللي يقدر يضحك على المغفلين، له فضل عليهم، عشان بيعلمهم الحياة .
7. لما باشوف حادثة تحطيم سيارة على الطريق أحمد ربنا إن ما كنتش فيها أكثر ما بافكر في اللي جرى لركابها
8. نص الشطارة في التجارة، ونص التجارة في تحسين العرض، مش ضرورى تحسين البضاعة
9. يستحسن أن يتزوج كل واحد، أو واحدة، حد يشبهه عشان ما يختلفوش.
10. أنا ما باتناقشى مع أولادى (أو زوجتى- أو إخوتى- أو أصدقائى) في الأفلام التى بنشوفها مع بعض

وبعد

غدا ننشر الاختبار كاملا (من 500 عبارة : للفرجة أيضا وليس للإجابة أو التعليق السريع)

ثم نستهدى بآرائكم حول العدد المناسب الذى ننشره للمناقشة كل أسبوع ولا أتردد في الوعد ثانية بالعودة إلى مناقشة اللعبة المؤجلة، التى أثار قضية : "مَمَّ يشقى الأسوياء" (بما في ذلك المعاجين) بتحدٍ مدهش مثير .